الارتسامات اللطاف

في خاطر الحاج الى أقدس مطاف

وهي الرحلة الحجازية لأمير البيان ونادرة الزمان

الأمير شكيب أرسلان

* * *

وقف على تصحيحها وعلق حواشيها

السيد محمد رشيد رضا
منشئ مجلة المنار

الطبعة الاولى في سنة ١٣٥٠

مطبعة المنار بمصر
شارع الأنشا رقم ١٤

مقدمة التصدير للناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ، وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَارَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ *

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الآيات من سورة الحج)

يحج بيت الله الحرام، ويزور مسجد رسوله وروضته عليه أفضل الصلاة والسلام، ألوف كثيرة من مسلمي الآفاق، أكثرهم من العوام والفقراء، وبعضهم من العلماء والادباء والكتاب والشعراء، ويقل في جملتهم من يفقه مايعمل، ومن يعي مايسمع، ومن يعقل ماينظر، ويقل في هؤلاء من يكتب لاخوانه المسلمين مايفيدهم شيئا لايجدونه في كتب الفقه أو التاريخ والرحلات والادب بل نرى من حجاج إخواننا المصريين من يكتبون في كل عام مايغضب الله تعالى ويسوء جيرانه في حرمه ، وجيران رسوله (ص) في روضته،

وخدام قاصدي هذين الحرمين من المطوفين والمزورين ، وحكامهما الحافظين لأمن السكان ، وآمّين البيت الحرام ، وأطباءهما المحافظين على صحة أهلهما ، وصحة من يتشرف بإداء المناسك والزيارة فيهما ، بل يكتبون ماينفر المسلمين عن اقامة هذا الركن العظيم من أركان الاسلام ، ويصدهم عن إحياء هذه الجامعة العامة التي امتاز بها على جميع الاديان ، ـ فهذا يشكو من شدة الحر ، وذاك يتململ من كثرة النفقة ، وآخر يتبرم عما نزعم من تقصير المطوفين وطمعهم

وأغرب من كل هذا أن منهم من ينتقدون منع البدع والخرافات ، والطواف بالقبور والاستغاثة بالاموات ، وان منهم من كتب في هذا الشهر مشنعا على حكومة الحجاز التقصير في عمارة مسجد الرسول (ص) وتجديد فرشه ، وهو يعلم ان حكومة الحجاز الحاضرة على فقرها ، قد فعلت مالم تفعله حكومة قبلها ، من حفظ الامن ، وتسهيل السبل ، وتوفير المياه ، والاسعافات الصحية للحاج ، فان هـذا قد صار متواترا ، ويعلم أيضا ان حكومته هو قد منعت ما كانت ترسله الى الحرمين وأهلهما من الاموال ، والحقوق المقررة لهما التي كانت ترسلها في كل عام ، وان هذه الحقوق هي بعض ماوقفه الملوك والامراء ، وأهل البر من الاغنياء ، ويعلم ان وزارة الاوقاف تجبي من أوقاف الحرمين في كل عام مئات الالوف من الجنيهات ، وتصرفها في غير ما وقفت عليه ـ ويعلم أيضا ان الحكومة التركية ، قد استحالت حكومة لا دينية ، وضمت أوقاف الحرمين

الى أملا كها ، بل هي تمنع من يريد الحج من شعبها ، وحجتها الظاهرة على هذا المنع ان الترك أحق بأموالهم أن تبقى في بلادهم من أن تصرف في بلاد العرب !!

وخير من هؤلاء الصادين عن سبيل الله ، والمنفرين عن شعائر الله ، والمؤذين لجيران الله ، من يؤلفون كتبا في رحلاتهم الحجازية ، ينقلون فيها أحكام المناسك الفقهية ، وبعض الاخبار التاريخية والأدبية ، ومن كتبوا في رحلاتهم وفي الصحف ما أملاه الحق من وصف أمن الحجاز ، وتوفير أسباب الراحة للحاج ، والثناء على الحكومة السعودية ورجاء الخير العظيم للاسلام فيها.

بيد أنك قلما ترى فيما كتبوا عبرة جديدة ، أو شيئا من الاقتراحات المفيدة ، أو ترغيبا في البذل لعمارة المسجد الحرام ، ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو لتسهيل السبيل على الحجاج والزائرين ، وتوفير المياه لهم والمقيمين ، اقتداء بما كان من فعل السلف الصالحين

دع ما هو أعلى من ذلك منزعا ، وأروى مشرعا ، وأبعد في الاصلاح غاية ، وأقوى في درء الخطر عن الاسلام وقاية ، فقد علم الواقفون على سياسة الاستعمار الاوربي أن خطره قد أحاط بجزيرة العرب ، ونفوذ بعض دوله تغلغل في بعض انحائها ، ثم طفق يوغل في أحشائها ، ويلغ في دمائها ، فان المستعمرين قد استولوا على سكة الحديد الحجازية ، التي كان الغرض الظاهر القريب من انشائها تسهيل أداء الفريضة ، والباطن البعيد حفظ

الجزيرة نفسها من الاستعمار الاوربي ، ومن قتل الاسلام في عقر داره ، وإزاحته عن قراره، تمهيداً لمحوه من الارض كلها،

كذلك كان شأن المسلمين في حجهم وزيارتهم ، وكذلك كان مادونوا في رحلاتهم ومقالاتهم ، الى أن أذن الله تعالى لعبده المجاهد في سبيله عاله ونفسه ، ولسانه وقلمه ، وعلمه وعمله، الامير شكيب أرسلان ، الذي بحق لقبته أمته بأمير البيان ، أن يستجيب لأذان ابراهيم خليل الرحمن، فيؤدي فريضة الحج، ويمرض مرضا يضطره بمداداه المناسك ، إلى الالتجاء الى الطائف ، والتوقل في جبالها وذراها ، والتنقل في مزارعها وقراها ، والهبوط في أخيافها وأوديتها ، فينال الشفاء والعافية من مرضه ، ومن مرض سابق له ، بما شم من هواء نقي ، وشرب من ماء روي ، وجنى من ثمر شهي، ويشاهد ما ثم من قابلية للعمران، لا يكاد يفضلها مكان، في عصر عم الحجاز فيه العدل والامان، وأن يصف ذلك بقلمه السيال ، وبيانه السلسال، الذي يجري فتكبو في غاياته جياد الفرسان ، ومن ذا الذي يطمع في لحاق أمير البيان ، في مثل هذا الميدان ؟ ميدان التاريخ وعلم الاجتماع والعمران ، ومافيه من دبر السياسة في هذا الزمان، ولا سيما سياسة الامة العربية والاسلام

أحمد الله تعالى أن وفق أخي شكيبا لأداء المناسك ، وشهود ماقرنه بها القرآن من المنافع ، وانما هي منافع أمته ، لامنافع شخصه وأسرته ، وأن يسّر له السير في تلك الارض ، لفقه ما أرشد اليه عقله ، وهدى له

قلبه ، فيعرف بنفسه جبالها ووهادها ، وأغوارها وأنجادها ، وسهوبها وصفاصفها ، ومجاهلها ومعارفها ، ثم يبحث مادفن في بطون الكتب من تاريخ عمرانها ، وكنوز معادنها ، مع بيان أماكنهـا ، ووسائل استخراجها من مكامنها ، ويجلي للعقول ما فيها من العبر البالغة ، ويقرن بها وصف حالتها الحـاضرة ، ويستنبط منهما ما يجب على الامة العربيـة وحكوماتها ، والشعوب الاسلامية وزعمائها، من توجيه أصدق ما أوتوا من إرادة وعزيمة ، وأفضل ما أعطوا من علم وثروة ، في سبيل عمران الحجاز ، وصيانته من خطر الاستعمار ، وان ذلك لا يتم لهم الا بعمران جزيرة العرب كلها ، لان انتقاصها من أطرافها ، يفضي الى الاحاطة بسائر أكنافها

تلك الغاية البعيدة المرمى، هي التي وضع لها الامير رحلته الحجازية التي سماها (الارتسامات اللطاف ، في خاطر الحاج الى أقدس مطاف) وقد أقام الدلائل على إمكان ما دعا اليه وسهولته ، من قابلية في المكان ، ومواتاة من الزمان ، وأشار الى ما يعترض به على ذلك من شبهات داحضة ، وكر عليها بما ينقضها من حجج ناهضة ، بما لم يبق لمعتذر عذرا مقبولا ، ولا لمقصر قولا معقولا

ثم انه لم يقف في ارتساماته دون هذا المقصد الاسمى ، بل ألم فيها بكل ما يهم المسلم من حال الحجاز وأهله وحكومته ، فأفاض القول في تعظيم شأن المياه فيه ، وما يرجى من زيادتها بالوسائل العصرية ، ولاسيما الآبار

الارتوازية ، واستشهد التاريخ على ما كان من عناية السلف الصالح بعمرانه ، وحبس الاوقاف الواسعة عليه ، وعناية الخلف الطالح بتخريب ما عمروا ، واضاعة أكثر ما وقفوا ، وتمهيد حكامهم الفاسقين ، سبيل ذلك لسالبي ملكهم من المستعمرين . وضرب لذلك الامثال ، بتاريخ أكبر المعمرين من الملوك والامراء والوزراء ، وأسهب في بيان أحوال المطوفين والمزورين وقناعتهم ، وما يجب من اصلاح حالهم ، ونوّه فيها بفضل الحكومة السعودية الحاضرة وخدمة ملكها للحجاز ، وأعظمها والمقدم منها تعميم الامنة في بدو البلاد وحضرها ، قريبها وبعيدها ، وما يرجى بحكمته من سائر اركان الاصلاح فيها .

***

وقد منّ علي ، بان عهد بنشر هذه الارتسامات إلي ، بان أطبعها بمطبعة المنار ، وأشرف على تصحيحها بنفسي ، لتعذر ارسال مُثُل الطبع اليه في أوربة ليتولى تصحيحها بنفسه ، بل منّ عليّ بالاذن لي بتعليق بعض الحواشي على بعض المواضع التي أرى التعليق عليها مفيداً لقارئيها ، ليكون اسمي مقرونا باسمه في هذا الاثر الخالد له في خدمة العرب والاسلام ، كما منّ عليّ قبله بمثله في رسالته التي جعل عنوانها (لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم) وهي هي الرسالة التي

سارت بها الركبان تطوي تفنفا فدفدا وسبسبا فسبسبا
فاضطربت بها بعض دول الاستعمار وزلزلت زلزالا شديدا ،

حتى قيل لنا انها أغرت حكومة سورية بمنع نشرها فيها ، وهي أحق بها وأهلها ، فانفردت بهذه المداوة للاسلام دون من أغروها بها

ولقد كان سماح الامير حفظه الله لي بهذا وذلك اعلاما لقارئي الرسالة والرحلة بما بيننا من الاخوة الاسلامية الصادقة ، والاتفاق في المقاصد الاصلاحية النافعة ، للامة العربية ، والشعوب الاسلامية ، التي نفخ روحها في كل منا شيخنا الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) بالتبع لاستاذه موقظ الشرق وحكيم الاسلام (السيد جمال الدين الافغاني) قدس الله روحهما ، وأجزل ثوابهما

هـذا وان الامير أمتع الله بعلمه وعمـله ، ولسانه وقلمه ، قد وضع للرحلة حواشي كثيرة عزوتها اليه في مواضعها ، وكان يجب أن أشير إلى ذلك في ديباجتها ، ولكنني ماعلمت بهـا إلا عند بلوغ أول حاشية منهـا

وقد كان لي وقفة ونظر في اقتراحه على الحكومات المختلفة في الدين والسياسة أن تشدد على حجاج بلادها الفقراء ، فيما تفرضه من الشروط للسماح لهم بالسفر إلى الحجاز ، لا لأن هذا الاقتراح منكر في نفسه ، بل لان الحكومات الاستعمارية التي تكره للمسلمين المرزوئين بسيطرتها عليهم أن يؤدوا هذه الفريضة ، لم تقصر في ارهاقهم بالشروط المالية والصحية ، بل أنا أعلم علم اليقين أن جميع الدول الاستعمارية تمقت قيام المسلمين بهذه الفريضة ، وتتعاون على صدهم عنها بما تستطيع من حول وحيلة ، ولولا مالبواخرها وتجارتها من المنافع من نقل الحجاج لكان تشديدهم في الصد

أكبر ، ولكن ماوضعوه من الدوائر والعقاب في سبيل الحج باسم المحافظة على الصحة، قد أنالهم بعض مرادهم منه بقلة من يتحمل مشقته من ملوك المسلمين ، وأمرائهم المترفين ، وأغنيائهم المحسنين ، وزعمائهم المفكرين

وقد كانوا حاولوا ان يقرروا في مؤتمر طبي عقد بمصر في أوائل عهد الاحتلال البريطاني أن الحجاز بيئة وبائية بطبعه ، يجب جعله تحت سلطة الحجر الدولي دائماً لذاته، فجاهد المرحوم سالم باشا سالم كبير اطباء مصر (والطبيب الخاص لسمو الخديو توفيق باشا وأسرته) يومئذ جهادا كبيرا دون ذلك ، حتى دحض كل شبهة تؤيد هذا الاقتراح ، وأثبت بالادلة الفنية الطبية والتاريخية ، أن الحجاز ليس بوطن لوباء الهيضة الوبائية (الكولرة) ولا لغيرها من الأوبئة السارية المعدية . ولكنني لم أضع لهذه المسألة حاشية ، بل أدعها الى علم الامير الواسع ، ورأيه الناضج ، لعله يستدرك ما يرى استدراكه ممحصا لهذا الرأي (١)

---

(١) ارسلنا الى الامير مثالا من هذه المقدمة قبل طبعها فكتب إلينا هذا الاستدراك : —

« اقتراح تشديد الحكومات على الفقراء بعدم الحج لم يكن مرادي به إلا منع الفقراء المعدمين الذين لايستطيعون الى الحج سبيلا ، والذين اذا جاءوا الى مكة صاروا وقراً على أهلها وحكومتها

وأما الفقراء الذين لم يبلغ فقرهم هذه الدرجة فليسوا المراد بكلامي . واني أوافق الاستاذ على كون دول الاستعمار تشدد الشروط عمداً على من يريد الحج المستطيع وغير المستطيع ، وذلك قطعا لصلة المسلمين بمكة وعزلا لهم عن اخوانهم في الدين. واذا سمحت احيانا بالحج فيكون على كره منها وامتعاض من ذلك باكراه =

وها أناذا أزف الى قراء العربية هذه الرحلة النفيسة ، والارتسامات اللطيفة، ولا ريب عندي في أنهم يقدرونها قدرها ، ويُمنون معي بنشرها، وبث الدعاية الى العمل بما فيها من النصيحة الثمينة ، التي تتوقف عليها حياة هذه الامة المسكينة ، التي كانت هي الناشرة لدعوة الاسلام ، والمفيضة لنور هدايته ، والمفجِّرة لأنهار حضارته، وباحيائها وعمران بلادها يناط بقاؤه، ويعود رواؤه ، وينضر إهابه ، ويتجدد شبابه ،

= الحجاج على ركوب بواخرها، وتفرض عليهم أجرة فاحشة وتحشرهم فيها حشراً يزيد قهرهم ، وفي السنة الفائتة لم تزل فرنسة تتنوع في الشروط وتعنت على الحجاج حتى لم يقدر على الحج إلا ٣٠ شخصاً من كل جزائر الغرب مع أن الذين كانوا نووا الحج هم أكثر من الف وتسعمائة

ولا يكثر على الفرنسيس بعد ذلك أن يمنوا بكرة واصيلا على مسلمي المغرب بالحرية الدينية التي امتعوهم بها ! وان يملأوا جرائدهم بما منحوهم منها ! حتى يخال من لم يطلع على الحقيقة ان مسلمي المغرب رانعون في بحابح الحرية الدينية كما يصفها هؤلاء الخطباء والكتاب

والحقيقة أن أهل المغرب جميعاً في عناء شديد من كل جهة ولا سيما من جهة حرية الاجتماع بسائر المسلمين بل من جهة حرية اجتماعهم بعضهم مع بعض ومنذ نحو شهر نادى المنادي في أسواق فاس بأنه ممنوع ذهاب التجار للبيع أو للشراء بين قبائل البربر . وجميع الناس يعلمون انه لايقدر أحد من الفقهاء ولا من حملة القرآن ولا من مشايخ الطرق الصوفيـة ان يدخل قرى البربر ولا أن يجول في الجبال التي هم فيها إلا باذن خاص من الحكومة على حين مئات من الرهبان والراهبات والاقسة والمبشرين يجولون في بلاد البربر كيف يشاؤن ويبنون المدارس والكنائس

فهذا هو كنه الحرية الدينية التي تمن بها فرنسة على مسلمي المغارب . ومن كان في شك من كلامنا هذا فليذهب إلى تلك البلاد أو فليسأل الثقات من أهلها»

وأختم هذا التصدير لما يؤيد قولي هذا من الاحاديث النبوية في شأن الحجاز ومستقبله ، وكونه مأرز الاسلام ومعقله ، وحصنه وموئله ، عند ما يشتد على المسلمين البغي والعدوان ، ويركبون المناكير فيناكرهم الزمان، او تستباح بيضتهم بما أعرضوا عن هداية القرآن

قال رسول الله (ص) « ان الايمان ليأرز الى المدينة كما تأرز الحية الى جحرها » (١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة .

وأعم منه وأدل على المراد قوله عليه الصلاة والسلام « إن الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها » رواه مسلم من حديث ابن عمر

وأعم منه وأظهر قوله (ص) « ان الدين ليأرز الى الحجاز كما تأرز الحية الى جحرها ، وليعقلنّ الدين من الحجاز معقل الأُرويّة (٢) من رأس الجبل . ان الدين بدأ غريبا ويرجع غريبا فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدي من سنتي »

وأوسع من ذلك كله وأدل على الباعث عليه ما رواه أحمد والبخاري ومسلم

---

(١) ارز كعلم انضم واجتمع وانكمش (وورد لغة من بابي ضرب وقعد) والمعنى انه سيعود الى المدينة والحجاز كله ويأوي اليه كما تعود الحية الى جحرها ولا سيما اذا خافت

(٢) الاروية بضم الهمزة وكسر الواو وتشديد الياء أنثى الوعول وهي تعتصم في أعالي الجبال . والمعنى أن الاسلام سيضعف ويصير غريباً ومضطهداً في الاقطار فلا يجد له حصناً ومعقلا إلا الحجاز فيعتصم فيه كما تعتصم الاروية في شناخيب الجبال

من حديث ابن عباس ان النبي ﷺ أوصى عند موته بثلاث أولها « اخرجوا المشركين من جزيرة العرب » وما رواه أحمد ومسلم والترمذي عن عمر (رض) انه سمع رسول الله ﷺ يقول « لأخرجنّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها الا مسلما » وما رواه أحمد من حديث عائشة (رض) قالت آخر ما عهد به رسول الله ﷺ أن قال « لا يترك بجزيرة العرب دينان » وروى عن أبي عبيدة عامر بن الجراح قال: آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ « اخرجوا يهود أهل الحجاز ونصارى نجران من جزيرة العرب » والمراد انه آخر ما أوصى به عند موته ، وأما آخر كلمة نطق بها ﷺ فهي « اللهم الرفيق الاعلى »

وقد بينت في مواضع من جزء التفسير العاشر وغيره حكمة هذه الوصايا النبوية، وهي ما أطلع الله تعالى عليه رسوله وأخبر به كما في حديث ثوبان (رض) وغيره، من تداعي الامم على المسلمين كما تتداعى الأكلة على قصعتها، وسلبهم لملكهم، واضطهادهم لهم في دينهم، إلى أن يضطروا الى الالتجاء الى مهد الاسلام الاول ، ومعقله الاعظم، ومأرزه الآمن، وهو الحجاز وسياجه من جزيرة العرب. ولذلك أوصى بأن يكون هذا المعقل خاصا بالمسلمين لا يشاركهم فيه غيرهم ، فهذه الوصية من دلائل نبوته ﷺ قد ظهر سرها في هذا العصر

وهانحن أولاء نرى أعداء الاسلام مازالوا يطاردون المسلمين حتى

انتهوا بهم إلى جزيرة العرب ، وطفقوا ينازعونهم فيها ، بل وصلوا إلى الحجاز واستولوا بمساعدة بعض أمرائه على أعظم موقع من معاقله البرية والبحرية (ما بين العقبة ومعان) وصاروا باستيلائهم على سكة الحديد الحجازية على مقربة من المدينة المنورة التي خصها الرسول ﷺ من هذه الوصايا بالذكر، وأنشأوا يؤسسون وطنا لليهود في جوارها من فلسطين التي يدعون أنها لهم وحدهم ، وسيطلبون ضم خيبر اليها ، بأنها كانت لهم وأخرجهم عمر بن الخطاب منها .

فاذا لم تتعاون جميع الشعوب الاسلامية على مساعدة حكومة الحجاز بالمال والنفوذ الصوري والمعنوي على حفظ الحجاز وعمرانه ، بل إلجائها الى ذلك واضطرارها اليه ، فستتقطع قلوبهم اسفا وندما ، ويذرفون بدل الدموع دما، إذ لاذات مندم ، ولا متأخر ولا متقدم، ولقد كنت في حيرة لا أهتدي السبيل إلى أقرب الوسائل لهذا العمران ، حتى وجدته مرسومه في هذه الارتسامات ، داحضة أمامه جميع الشبهات ، فبادروا اليه أيها المسلمون (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات)

وكتبه ناشر الارتسامات .

السيد محمد رشيد رضا

منشىء مجلة المنار